رمضان في مذكرات الرحالة الاجانب

اعتنى الرحالة الأوربيون، من خلال رؤيتهم أحوال المجتمعات الشرقية، وما تمثله من عالم غريب حافل بكل ما هو مثير -من وجهة نظرهم- قد عنوا برصد كل مظاهر التقاليد والمعتقدات الشعبية المتوارثة، وكان من بينها مظاهر الاحتفال بشهر رمضان.

د. سوسن الزبيدي

شهد الرحالة البندقي (برنار دي بريد نباخ) ليالي رمضان في القاهرة-منتصف القرن الخامس عشر-ووصف مظاهر بهجة الناس بهذا الشهر، إنارة المساجد والدروب، والإنشاد وحلقات الذكر ودق الدفوف (حتى تعذر عليه النوم)!، كذلك الرحالة الإيطالي (فيلكس فابري) الذي زار مصر عام ١٤٨٣م، فقد أعرب عن دهشته ليلة دخوله القاهرة لكثرة ما رأى بشوارعها من الأنوار والمشاعل والفوانيس المختلف ألوانها وأشكالها، يحملها الكبار والصغار، وشاهد المسحراتي-الذي اعتقد أنه أحد رجال الدين!، حيث كان يمر ثلاث مرات في الشوارع ليلاً ومعه طبل يدق عليه منادياً للناس بأسمائهم.

وقد حرص بعض هؤلاء الرحالة على استئجار غرفة في شارع رئيسي، ليتمكن من متابعة الاحتفالات بهذا الشهر.. وقد وصف الفرنسي: (فيلامون) عام ١٥٨٩ بعض مظاهر الاحتفالات بهذا الشهر.. مواكب دراويش الصوفية وحلقات الذكر، والمساجد المضاءة وزحام الأسواق، ومآدب الإفطار التي يدعى إليها الأصدقاء.

أما العالم والمهندس والمؤرخ الشهير (فرنسوا جومار) أحد العلماء الذين صحبهم نابليون في حملته إلى مصر، فيقول: (تحيا الأعياد الدينية في القاهرة ببذخ شديد، فالناس جميعاً يعلمون أن رمضان هو شهر الصوم، فيمتنعون عن الطعام والشراب والتدخين والاستمتاع بأي تسلية بين شروق الشمس وغروبها، ولكن هذا الحرمان، الذي يطول أو يقصر حسب الفصل، يتبعه استمتاع كاف لنسيان هذا الحرمان، ويحتفي المسلمون بليالي رمضان، بينما يحضرون خلال النهار-في جماعات كبيرة-وبورع شديد، دروس الفقه بالمساجد، ومنهم من يتشاغل بالعمل وفي الغالب بالنوم! وفي المساء، تبدو الشوارع مضاءة صاخبة، وتظل الأسواق والمقاهي مفتوحة حتى أذان الفجر).

كلوت بك:

أما (كلوت بك) الفرنسي، صديق محمد علي باشا ومؤسس أول مدرسة للطب في مصر... والذي سجل في كتابه الشهير (لمحة عامة إلى مصر) انطباعاته عن مصر وشعبها في ذلك العصر الذي شهد تأسيس الدولة الحديثة في مصر، فيقول عن مظاهر شهر رمضان: (صوم رمضان.. من الفرائض الأساسية في الدين الإسلامي.. وشهر رمضان لا يقع في فصل معين من السنة، وإنما يطوف بها جميعاً، وتتم دورته في كل ثلاث وثلاثين سنة مرة.. وعلى خلاف ما كنا نعتقد في أوروبا، بأنه شهر ترفيه وتفرغ للملذات!.. بينما هو شهر الحرمان من الشهوات.

ولا يقتصر الصوم على حرمان النفس من الطعام والشراب طوال النهار، بل يمتد أيضاً ليشمل التدخين والنشوق والروائح العطرية.. ويعفى الحوامل والمرضى والمسافرون من الصوم، غير أن بعض الأتقياء-في حالة المرض أو السفر-لا يأخذون بهذه الرخصة!.

ويتناول الفقراء إفطارهم بنهم وشهية... أما الأثرياء فيكتفون بوجبة خفيفة... قليل من الخبز أو الحلوى أو الفاكهة، وقد يتناول بعضهم أطباقاً سهلة الهضم كالمهلبية ثم يدخنون (الشيشة) مع قدح قهوة أو كوب شربات إلى أن يصلوا العشاء، ثم يتناولوا وجبة الإفطار الدسمة!

ويتخذ كثير منهم طريقهم إلى المساجد، بينما يمضي البعض إلى المقاهي، يستمعون إلى حكايات شعراء الربابة والمنشدين.. وتتنوع أمسيات رمضان في شوارع القاهرة، ما بين مشاهد ألعاب الحواة أو الانضمام لحلقات الذكر حول ضريح أحد الأولياء.. بينما يتجمع البعض في ممرات حديقة (الأزبكية) في ضوء القمر، ليستمعوا إلى فرق الموسيقى التركية، ومشاهد (خيال الظل) و(الأراجوز) وتناول الكعك والذرة المشوية والقهوة وعصائر الفاكهة، ويتفنن الباعة في الغناء لبضاعتهم، بينما يشق السقاءون الجموع وهم يحملون قرب الماء.

ودي شابرول: هو أحد العلماء البارزين في حملة نابليون على مصر، وقد أعد دراسة قيمة بعنوان: (عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين) نشرت ضمن موسوعة وصف مصر.. وبعد أن تحدث عن أعياد المصريين التي تعود إلى أصول دينية، وهي فرصة للمباهج والاحتفالات العامة، أشار إلى أن شهر رمضان في مجموعه هو شهر للعبادة واللهو أيضاً!.. ثم تحدث عن (موكب الرؤية) حيث يركب القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وأرباب الدولة، يحيط بهم الدراويش وعامة الناس، وعدد كبير من القناديل والمشاعل، وعقب ثبوت الرؤية، يتوجهون جميعاً إلى القلعة لتهنئة الوالي، وتضاء أمام الحوانيت القناديل والشموع، وتوضع المباخر بأشكالها الجميلة تنتشر منها روائح زكية!

ففي النهار، يسعى كل امرئ قدر طاقته كي ينهي عمله في أسرع وقت، ليخصص بضع ساعات للنوم، فترى الفلاح راقداً تحت نخلة، والتاجر يرقد على بنك دكانه، والعامة ممددين أمام واجهات بيوتهم بينما الأثرياء ينعمون بالنوم على أرائك فاخرة داخل السلاملك.

وتتجمع النساء في المشربيات يرقبن الشمس وهي تتوارى وراء الأفق.. إلى أن تأتي الساعة التي طال انتظارها، حيث تتصاعد أصوات المؤذنين من فوق منارات المساجد، يدعون الناس إلى الصلاة، فمنهم من يلبي النداء، ومنهم من يهرع إلى الطعام والشراب.. ويحرص الأثرياء على تقديم مآدب الإفطار الباذخة، حيث يقدم الطعام إلى الجميع بلا تمييز!

وتظل المساجد والشوارع مضاءة بالقناديل حتى مشرق الشمس، ويذهب كثير من الناس إلى المقاهي للاستماع بحماس إلى الرواة والمنشدين وهم يقصون حكايات عجيبة!.. ويذهب البعض إلى الحمامات العامة التي لا تخلو من المسرات والتسلية!.. بينما تزدحم الميادين بالحواة والمشعوذين، وفرق التمثيل.

منصور أفندي:

أما المستشرق البريطاني الشهير (إدوارد لين) الذي تأثر بعادات وتقاليد مجتمع القاهرة، حتى أنه شارك المسلمين صلاتهم بالمساجد، وفي حلقات الذكر، راصداً تفاصيل الحياة اليومية، وسمى نفسه (منصور أفندي)!.. فقد حدثنا عن مشاهداته لطقوس ليلة رؤية هلال رمضان عام ١٨٣٥م فيقول: (والليلة التي يتوقع أن يبدأ صبيحتها الصيام، تسمى ليلة الرؤية.. فيرسل عدد من الأشخاص الثقاة إلى مسافة عدة أميال في الصحراء، حيث يصفو الجو، لكي يروا هلال رمضان.. بينما يبدأ من القلعة موكب الرؤية الذي يضم المحتسب وشيوخ التجار وأرباب الحرف: الطحانين والخبازين والجزارين والزياتين والفكهانية، تحيط بهم فرق الإنشاد ودراويش الصوفية، وتتقدم الموكب فرقة من الجنود.. ويمضي الموكب حتى ساحة بيت القاضي ويمكثون في انتظار من ذهبوا لرؤية الهلال.. وعندما يصل نبأ ثبوت رؤية هلال رمضان، يتبادل الجميع التهاني، ثم يمضي المحتسب وجماعته إلى القلعة، بينما يتفرق الجنود إلى مجموعات يحيط بهم (المشاعلية) والدراويش، يطوفون بأحياء المدينة، وهم يصيحون: يا أمة خير الأنام.. صيام.. صيام.. أما إذا لم تثبت الرؤية في تلك الليلة، فيكون النداء: (غداً متمم لشهر شعبان.. فطار.. فطار.(!.

وأشار (لين) إلى صمت الشوارع وتراخي حركة الحياة نهاراً، وقبيل المغرب (توضع مائدة الإفطار.طوال شهر رمضان.في غرفة الاستقبال، حيث يستقبل رب الدار ضيوفه، وتعد صينية فضية كبيرة تزدان بأطباق المكسرات والزبيب والحلوى وأواني الشربات والماء، وفي الحسبان دائماً الضيوف الذين قد يهبطون بغته، وتجهز أدوات (الشوبك) للتدخين.. وبعد أذان المغرب، يتناول رب الدار مع أسرته وضيوفه أكواباً من شراب الورد أو البرتقال، ثم يؤدون صلاة المغرب وبعدها يتناولون شيئاً من المكسرات ويدخنون..

وبعد تناول شراب منعش يجلسون لتناول إفطارهم، غالباً من اللحوم وأطايب الطعام، ثم يؤدون صلاة العشاء وتعقبها صلاة التراويح التي تؤدى جماعة في المسجد، ثم يتدفق الناس إلى الشوارع، ويتحول الليل إلى نهار، ويرتاد العامة المقاهي ليستمعوا إلى المنشدين ورواة السير الشعبية، ويعقد دراويش الصوفية حلقات الذكر وختمة القرآن في منازل شيوخهم كل ليلة.

ويدور المسحراتي في كل ليلة، ولكل منطقة مسحراتي خاص بها، يطلق المدائح لأرباب المنازل، ممسكاً بيده اليسرى (بازا) صغيراً، وبيده اليمنى عصا أو قطعة من الجلد يضرب بها، عند كل وقفة ثلاث مرات، يرافقه صبي يحمل فانوسين.. موحداً الله ومصلياً على الرسول (ص) اصح ياغفلان.. وحد الرحمن.. أسعد الله لياليك (يافلان) داعياً بالتقبل والحفظ لأهل الدار، ولايذكر اسماء البنات وإنما يقول: أسعد الله لياليك يا ست العرايس)!.

ويشير إدوارد لين إلى أن المسحراتي كان أحياناً ينشد من قصص المعجزات الدينية كقصة الإسراء والمعراج، ويلتزم الصمت عندما يمر ببيت في حالة حزن لوفاة عزيز.. ومن طريف ماورد إدوارد لين.. أن نساء الطبقة المتوسطة كن يضعن قطعة نقود معدنية داخل ورقة ملفوفة ويشعلن طرفها ثم يلقين بها من المشربية إلى المسحراتي. حتى يرى موضعها.فينشد لهن بعضاً من المدائح النبوية أو حكايات المعارك بين (الضرائر!).

وأشار كذلك إلى دعاء (الابرار) من فوق المآذن عقب صلاة العشاء والذي يشمل الآية القرآنية: (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد الله...) والدعاء الثاني كان نحو منتصف الليل ويسمى (السلام) عبارة عن مجموعة أدعية وثناء وصلوات على رسولنا الكريم.

وتحدث ادوارد لين عن العشر الأواخر من رمضان، وقال إن غالبية المؤمنين يفضلون قضاءها في جامع المشهد الحسيني وجامع السيدة زينب.. وأضاف:

إحدى هذه الليالي وهي الليلة السابعة والعشرون تعرف بليلة القدر.. وهي الليلة التي نزل فيها القرآن على محمد.وهي خير من ألف شهر.. ويعتقد المسلمون أن أبواب السماء تكون مفتوحة في هذه الليلة، فيستجاب فيها الدعاء).

ريتشارد بيرتون:

ويقول العالم والرحالة المستشرق الايرلندي (ريتشارد بيرتون) خريج اكسفورد والضابط بالجيش البريطاني في الهند، وقد قام برحلات استكشافية في شرق وغرب إفريقيا، وجزيرة العرب ووصل الى مصر سنة ١٨٥٣م: (تراعي مختلف الطبقات شعائر هذا الشهر بإخلاص شديد فلم أجد مريضاً واحداً اضطر ليأكل حتى لمجرد الحفاظ على حياته.. والأثر الواضح لهذا الشهر على المؤمنين هو الوقار الذي يغلف طباعهم.. وعند اقتراب المغرب، تبدو القاهرة وكأنها أفاقت من غشيتها، فيطل الناس من النوافذ والمشربيات يرقبون لحظة الأذان!.. بينما البعض منهمك في صلواته وتسبيحه، وآخرون يتحلقون في جماعات أو يتبادلون الزيارات.

أخيراً.. انطلق مدفع الإفطار من القلعة، ياللسعادة!.. ويجلجل صوت المؤذن جميلاً داعياً الناس إلى الصلاة، ثم ينطلق المدفع الثاني من قصر العباسية (سراي عباس باشا الأول) وتعم الفرحة أرجاء القاهرة.. التي كانت صامتة.. وينتقل إحساس الترقب المبهج إلى اللسان الجاف والمعدة الخاوية والشفاه الواهنة، فتشرب (قلة) من الماء.. ثم تصفق طالبة. في عجلة-الشيشة وقدحاً من القهوة.. ثم تنتظر مباهج المساء)!.

ألبرت فارمان:

ولإثبات أول يوم في رمضان، يجب رؤية الهلال عملياً، فيخرج الرجال إلى التلال العالية خلف القلعة، وفور أن تثبت لهم رؤية الهلال يعودون بالبشرى، ولا بد من إثبات ذلك كتابة، وصدور إعلان من أصحاب المقامات الرفيعة المجتمعين ببيت القاضي.. وتنطلق المدافع من القلعة، وتسير المواكب الرسمية والشعبية المبتهجة في أرجاء العاصمة: معلنة بدء صيام رمضان.. وعندما توشك الساعات المضنية من النهار-شديد الحرارة-على الانتهاء، ينتظرون في صمت دوي مدافع القلعة، وتجلجل أصوات المؤذنين.. والظمأ هو أول ما يجب إطفاؤه بجرعة من ماء النيل المقدس وتشعل السكائر، ويعد البلح والفاكهة والمشروبات المرطبة، ثم ينهمك الجميع في أطايب الطعام.. وفي رمضان تؤجل الأعمال الشاقة، والمطاعم والمقاهي في ذروة رواجها، وتزدان الشوارع والبيوت والمساجد بالأنوار، وتمضي ثلاثون يوماً ثم يعلن مدفع القلعة انتهاء الصيام.. وفي صباح اليوم التالي، الموافق أول شهر شوال، يبدأ (العيد الصغير) ثلاثة أيام هي موسم للزيارات والمقابلات والاحتفالات، وارتداء الملابس الجديدة.

رمضان ايام زمان

رمضان شهر الخير والبركات ،شهر الطاعة والايمان يستقبله المسلمون في مشارق الارض ومغاربها ومعهم البغداديون وكل ابناء العراق احسن استقبال ففي اخر يوم من ايام شعبان يتوافد المسلمون على الجوامع ليرقبوا —على منائرها وسطوحها— هلال شهر رمضان مرحبين بقدومه قائلين بنغم لطيف:مرحبا بك ياشهر رمضان مرحبا بك ياشهر الخير والبركات ويستعد البغداديون استعدادا خاصا لهذا الشهر الفضيل حيث يشترون لوازم المائدة الرمضانية كالقمر الدين والرشدة واللوز والكشمش وغيرها.وتنار احواض المنائر بالقناديل التي استعاضوا عنها بالمصابيح الكهربائية اليوميدور في كل محلة او في كل عدد من المحلات (الاطراف) جماعة من الناس يضربون على الدمامات في وقت السحور لايقاظ النائمين تمهيدا لصومهم.

وقبل السحور تطبخ ام البيت (تمن على رشده) وتنقع طبقات القمر الدين او شربت ماء الرارنج والسكر او شربت النكوع ثم توقظ جميع افراد العائلة حتى الصغار الذين لاتشملهم فريضة الصيام (وهؤلاء انما يوقظون للاستمتاع بليالي رمضان والتعود على تلك الصفات الحميدة منذ الصغر) وقبل اذان الصباح ينادي المؤذن (اشرب الماي وعجل قبل مايأتي الصباح) ثم يصيح (امساك امساك يرحمكم الله) وليس في استطاعة احد خلال النهار ان يجاهر بالافطار حتى الشيوخ والمرضى فانهم يتمسكون بالشعائر الاسلامية ولا يعلنون افطارهم . وبعد صلاة العصر يستمعون الى (وعظ)خطيب الجامعوعند المغرب وقبيل الاذان -تنصب الصيبية الكبيرة حافلة بأصناف عديدة من الطعام ومن عادة ام البيت ان تختار لكل يوم عددا من تلك الاصناف يصعد صغار العائلة الى السطح العالي لسماع اذان المغرب وبمجرد انطلاقه من المنائر يقيمون الدنيا بصياحهم تضامنا مع صغار المحلة: ياصايمين افطروا كشفوا النجانه واكلوا ابدأ(ابو البيت وبقية افراد العائلة فطورهم اولا بأكل (فردة تمر) وهذه سنة مأثورة عن الرسول(ص)ثم الشوربة وبعدئذ ياتون على ماهو موجود في الصينيةطبخات رمضان —تختار ام البيت لكل يوم من ايام رمضان بعض هذه الاكلات :شوربة- تشريب-هريسة -كبة والغالب ان تكون كبة حلب (وقد سألت عنها في حلب فعلمت انهم يسمونها كبة بغداد ولادري ما سر توارد الخواطر هذا!!)-او كبة برغل -كبة حامض -مخلمة باجه-عروك-كباب مشوي او مقلي-تكة -دولمة محلبي-زردة وحليب -حلاوة تمر -مع الحلويات :بقلاوة -ازلابية -برمة-قطايف -شعر بنات ولبائع حلويات رمضان نداء خاص منغم يعلن فيه عن سلعته حين ينادي: ازلابية وبقلاوة وشعر بنات وين اولي وين أبات أبات بالدربونة أخاف من البزونة أبات بالمحطة تجي عليه البطةاما بائع الزلابية وحدها فينادي: ابعانتين أوكيه، بعيار البلدية، والدهن دهن لية ولحد يعتب عليه.ورمضان فاتن في لياليه فبعد صلاة العشاء وصلاة التراويح يذهب بعض البغادة الى المقاهي للتسلي بلعبة المحيبس او لعبة الصينية وبعضهم يقصد اقرباءه او اصدقاءه لقضاء (التعلولة)حتى موعد تناول السحور.

اما النساء فتراهن مشغولات بيهئة وخياطة ملابس العيد وقبيل حلوله يبدأعمل الكليجةاما الاولاد والصبيان فيلعبون مع اقرانهم اولاد المحلة في الدرابين مختلف الالعاب السائدة في بغدادوداع رمضان —في اليوم الاخير من شهر رمضان يقف المسلمون فوق السطوح وعلى احواض المنائر لمراقبة هلال شوال وعند رؤيته يودعون رمضان قائلين الوداع ياشهر رمضان..

الوداع ياشهر الطاعة والغفرانسحور اليتيمة —في ليلة العيد يتناول من كان صائما اكلا خفيفا قبل النوم وهذا مايسمى بسحور اليتيمةالفطرة —صدقة توزع على الفقراء اما نقودا او حنطة او اقمشة وغيرها عن كل فرد من افراد العائلة حتى لو كان جنينا في بطن امه او خادما ان كان للعائلة خادمكليجة العيد —يهئ ابو البيت الكمية المطلوبة من الطحين الحنطة تمهيدا لعمل كليجة العيد التي لابد من عملها واغلب عوائل بغداد لازالت على عادتها في هذا الصدد.

كما تهئ ام البيت مواد الحشو بعد ان تكسر الجوز وتدق اللب وتخلطه مع السكر والهيل.ثم تبدأ بتفليس التمر الخستاوي (اى استخراج النوى منه).وفي موعد عمل الكليجة يضاف الى المنظف كمية من الدهن المحروق ثم يعجن التمر عجنا جيدا حتى يتداخل مع الدهن كما تهئ الحوائج وهي مجموعة من المواد العطاريه يجمعها العطار وتتألف من (حبة حلوة -كزبرة-حبة سودة-كركم -كمون) وتخلط مع الطحين قبل عجنه لتعطي الكليجة نكهة مستحبةتهيئة العجين —توضع كمية الطحين المراد عجنه في طشت كبير مخلوطة بكمية مناسبة من الحوائج وملح الطعام ثم يسكب الدهن (بعد ان يضرب داغ)ثم توضع الخميرة الكافية.

وبعد ان يختمر يقسم الى مياسر(جمع ميسر) وهي قطعة مستطيلة من العجين ثم يتعاون معظم افراد العائلة في عمل كليجة العيد وفق منهج خاصفك العجين—هناك تختة خاصة مدورة الشكل سطحها املس تسمى (تختة الكليجة) وهناك (الشيبك)وهو اداة خشبية اسطوانية الشكل ملساء تستعمل لفك العجين عند عمل الكليجة او خبز الاركاك وغيرها من شغل العجين وتكون في نهايتي الشيبك قبضتان في نهاية كل قبضة نقشة خاصة تستعمل في زخرفة خفيفيات الكليجةيؤخذ العجين ميسرا بعد الاخر ويقطع الى قطع صغيرة تسمى (شنكه)وكل شنكه تفك اولا ثم تعمل اولا ام (خفيفية)وهي مدورة الشكل تطمغ عدة طمغات بنقشة الشيبك وتدك عدة مرات باسنان الجطل (الشوكة)او (سمبكساية) وهي محشاة بالجوز والشكر حيث تفك الشنكة اولا كما اسلفنا ويوضع في داخلها قليل من السكر والجوز ثم تطوى قطعة العجين المدورة وتضفر حواشيها لتكون مغلفة على ما فيها من حشو اما النوع الثالث وهو ام التمر وتسمى (..... العبده) فلا سبيل الى الحصول عليه الابعد ان تفك شنكة العجين اولا كما في عمل الخفيفيات ويوضع في وسطها قليل من التمر المهيأ سلفا وتطوى نهايات الخفيفية على التمر لتصبح مستطيلة الشكل تقريبا وهناك من البغادة من يعمل لعابات للجهال -الصغاروعند اكمال شغل الكليجة تطلى وجوه جميع القطع خفيفيات كانت ام سمبكسايات بصفار البيض ثم تخبز بالتنور وتحفظ جاهزة الى ايام العيد.

عن كتاب بغداديات
تأليف - عزيز الحجية